هذه صفحات من هذا الكتاب المبتكر




وقد استئذناه - حفظه الله - في

تصوير "بعض" صفحات كتبه فأذن جزاه الله خيراً

تصوير

marthad.wordpress.com

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

نشر على موقع الألوكة



أعلام المسلمين
٩٥

# الإمام ابن قيم الجوزية

## الداعية المصلح والعالم الموسوعي

صالح أحمد الشامي

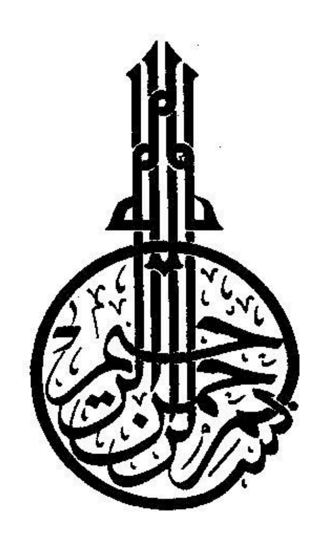
دار القلم
دمشق

الطبعة الأولى
١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م



تُطلب جميع كتبنا من:
دار القلم - دمشق هاتف: ٢٢٢٩١٧٧ فاكس: ٢٤٥٥٧٣٨ ص.ب: ٤٥٢٣
الدار الشامية - بيروت هاتف: ٨٥٧٢٢٢ (٠١) فاكس: ٨٥٧٤٤٤ (٠١) ص.ب: ١١٣/٦٥٠١
www.alkalam-sy.com

توزّع جميع كتبنا في السعودية عن طريق:
دار البشير - جدّة: ٢١٤٦١ ص.ب: ٢٨٩٥ هاتف: ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١



## هذا الرجل

«سمع ـ ابن قيم الجوزية ـ الحديث، واشتغل بالعلم، وبرع في علوم متعددة، لا سيما علم التفسير والحديث والأصلين.. ولازم شيخ الإسلام ابن تيمية فأخذ عنه علماً جمّاً، مع ما سلف له من الاشتغال، فصار فريداً في بابه في فنون كثيرة، مع كثرة الطلب ليلاً ونهاراً».

**العلامة ابن كثير**

«الفقيه الأصولي، المفسر النحوي العارف، تفقه في المذهب، وبرع وأفتى، ولازم الشيخ تقي الدين وأخذ عنه، وتفنن في علوم الإسلام، وكان عارفاً بالتفسير لا يجارى فيه، وبأصول الدين، وإليه المنتهى فيهما، والحديث ومعانيه وفقهه، ودقائق الاستنباط منه، لا يلحق في ذلك، وبالفقه وأصوله، وبالعربية، وله فيها اليد الطولى، وتعلم الكلام والنحو وغير ذلك، وكان عالماً بعلم السلوك وكلام أهل التصوف وإشاراتهم ودقائقهم، له في كل فن من هذه الفنون اليد الطولى».

**الحافظ ابن رجب**

«اشتغل كثيراً: ناظر واجتهد، وأكب على الطلب.. وصار من الأئمة الكبار في علم التفسير والحديث والأصول، فقهاً وكلاماً، والفروع والعربية».

**المحقق الصفدي**

«كان جريء الجنان، واسع العلم، عارفاً بالخلاف، ومذاهب السلف».

**الحافظ ابن حجر**

«صنف وناظر واجتهد، وصار من الأئمة الكبار في التفسير والحديث والفروع والأصلين والعربية».

**الإمام السيوطي**

«ما تحت أديم السماء أوسع منه علماً».

**برهان الدين الزرعي**

❑ ❑ ❑



بسم الله الرحمن الرحيم

## المقدمة

الحمد لله ربِّ العالمين، وأفضلُ الصلاة، وأتمُّ التسليم على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

**وبعد:**

فإن الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله ـ واحد من أعلام هذه الأمة، الذين أثروا المكتبة الإسلامية بتراثهم، وأضافوا إلى الثقافة العامة من علومهم.

وقد سمع باسمه كثيرون، منهم الكبير ومنهم الصغير، ولكن بعضهم لا يعرف عنه إلا القليل.

وقد رغب بعض الإخوة أن أكتب للإمام ترجمة متوسطة تلبِّي الحاجة في التعريف به.

وقد ساعد على تلبية طلبهم، أنِّي كنت منذ عقد ونصف من الزمن قد بدأت العمل على إخراج طائفة من كتبه تحت عنوان «تقريب تراث الإمام ابن القيم» ، وقد بلغت حتى الآن خمسة عشر كتاباً.

فرأيت في تلبية طلبهم أمراً حسناً، على الرغم من كثرة الدراسات التي أجريت حول هذا الإمام، إذ كلٌّ منها يتناول جانباً من ثقافته، كالتربية عند ابن القيم، أو منهج التفسير عنده.. وما أشبه ذلك.

وهناك في واقع الحال، لكل عالم ترجمتان:

**الأولى**: يكتبها عنه معاصروه الذين عاشوا معه، وهي تشكِّل مجموعة الأخبار التي نقلت سلوكه وأعماله.. وعادة يشترك بذلك المحِبُّون والمبغضون.

**الثانية**: هي ترجمة أخرى يكتبها العالم نفسه من خلال كتبه التي ألَّفها، وبقيت بعده تترجم حياته بطريقة أو بأخرى، ولقد كانت هذه الكتب بعض حياته.. فهي الزمن الذي سُطرتْ به، إنها أيامه وساعاته التي قضاها مع هذه البحوث التي تركها لنا بعده.

وسوف يكون جلُّ اهتمامي موجهاً إلى النوع الثاني، فتسليط

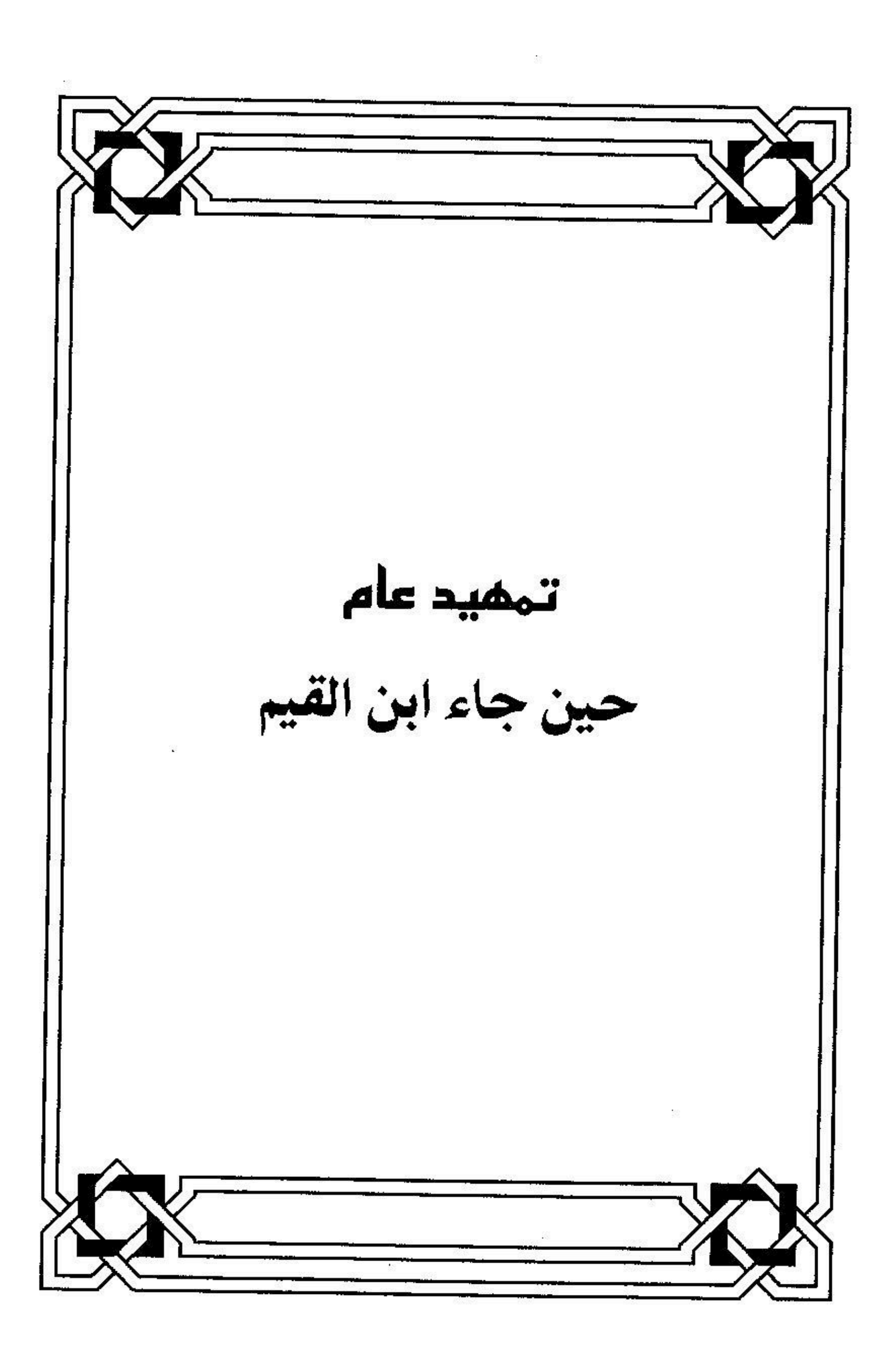


الضوء على تراثه الذي بين أيدينا، يعطي التصوُّر الأفضل والمباشر عنه.

ولن أهمل النوع، وسوف أبذل جهدي في تسجيل ما أستطيع الوصول إليه.

هذا، وأرجو الله تعالى أن يتقبَّل هذا العمل، وسائر أعمالي، إنه سميع مجيب، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

| | |
|---|---|
| ١ شعبان ١٤٢٨ هـ | وكتبه |
| ١٤/ ٨/ ٢٠٠٧ م | صالح أحمد الشامي |



# تمهيد عام

# حين جاء ابن القيم

# أولاً
# الحالة السياسية

ولد ابن القيم في مطلع العقد الأخير من القرن السابع الهجري، وكان سلطان المسلمين يومئذ في مصر ، وأمراؤهم في بلاد الشام.

والمسلمون يومئذ مشغولون بتطهير البلاد من فلول الفرنجة وبقايا الحروب الصليبية. وتَمَّ فتح عكا في سنة تسعين وستمائة، أي قبل مولد ابن القيم بسنة واحدة.

يقول ابن كثير في «البداية والنهاية» في حوادث هذه السنة:

«وفيها جاء البريد ـ من القاهرة ـ إلى دمشق لتجهيز آلات الحصار لعكا، ونودي في دمشق: الغزاةَ في سبيل الله إلى عكا، وخرج العامة والمتطوعة.. حتى الفقهاء والمدرسين والصلحاء.

وركب السلطان الأشرف من الديار المصرية بعساكره قاصداً عكا، فتوافت الجيوش هناك.. ونصبت عليها المجانيق من كل

ناحية يمكن نصبها عليها، واجتهدوا غاية الاجتهاد في محاربتها والتضييق على أهلها.

وتمَّ الزحف عليها يوم الجمعة سابع عشر جمادى الأولى عند طلوع الشمس، وطلع المسلمون على الأسوار، ونصبت السناجق الإسلامية فوقها.. فولَّت الفرنج عند ذلك الأدبار وركبوا هاربين في مراكب التجَّار، وقتل منهم عدد لا يعلمه إلا الله تعالى.

وسلَّمَتْ صور وصيدا قيادتها إلى الأشرف، فاستوثق الساحل للمسلمين، وقطع الله دابر القوم الذين ظلوا، والحمد لله ربِّ العالمين».

في هذا الجو ولد ابن القيم.. ولم يكن فتح عكا نهاية لأجواء الحرب والخوف في دمشق؛ فقد كانت موجات التتار التي دقَّت أبواب دمشق أكثر من مرة تلقي بظلالها على الأجواء العامة، التي كانت مليئة بالخوف والرعب من الوحشية التي اشتهر بها هؤلاء التتار، وتميزت بها أعمالهم المنكرة.

وفي سنة (٦٩٩ هـ) التقى جند الناصر بن قلاوون بالتتار في وادي الخزندار، وكانت معركة شديدة انهزم فيها جند الناصر وولوا الأدبار فارين.. واجتازوا دمشق فارين إلى مصر.

فباتَ أهل دمشق في خوف شديد، وفر أعيانها حتى صار البلد شاغراً من الحكام.



وجمع ابن تيمية من بقي من أعيان البلد واتفق معهم على ضبط الأمور، وخرج في جماعة من العلماء إلى قازان ملك التتار، وطلب منه الأمان لأهل دمشق وعدم دخولها.. فاستجاب ولكن إلى حين.

قال ابن كثير: «وفي مستهلِّ صفر سنة سبعمائة، وردت الأخبار بقصد التتار بلاد الشام، وأنهم عازمون على دخول مصر، فانزعج الناس لذلك وازدادوا ضعفاً على ضعفهم، وطاشت عقولهم وألبابهم، وشرع الناس في الهرب إلى مصر.

وجلس الشيخ تقي الدين ابن تيمية في ثاني صفر بمجلسه في الجامع، وحرَّض الناس على القتال، وساق لهم الآيات والأحاديث الواردة في ذلك، ونهى عن الإسراع في الفرار، ورغَّب في إنفاق الأموال في الذَّبِّ عن المسلمين وبلادهم وأموالهم، وأن ما ينفق في أجرة الهرب إذا أنفق في سبيل الله كان خيراً..وتابع المجالس في ذلك.. وثبَّت الناس وحثَّ على الجهاد.

ثم جاءت الأخبار بأن ملك التتار قد خاض الفرات راجعاً عامه ذلك لضعف جيشه وقلة عددهم.. فطابت النفوس لذلك، وسكن الناس».

على أن حلم دخول دمشق الذي كان يراود التتار لم يفارقهم، ولذا لم تطل فترة اطمئنان نفوس أهل دمشق.

فقد حملت أخبار سنة اثنتين وسبعمائة أخبار عزم التتار على ذلك.

قال ابن كثير: «وفي شهر رجب قويت الأخبار بعزم التتار على دخول بلاد الشام، فانزعج الناس لذلك، واشتد خوفهم جداً، وقنت الخطيب في الصلوات، وقرئ البخاري.

وفي ثامن عشر -من رجب- قدمت طائفة كبيرة من جيش المصريين بقيادة ركن الدين بيبرس.. ثم قدمت طائفة أخرى.. فقويت القلوب، واطمأن كثير من الناس.

وخرجت العساكر إلى ناحية الكسوة.. حيث اجتمعت العساكر الشامية والمصرية.

وكان التتار قد دخلوا حمص وبعلبك وعاثوا في تلك الأراضي فساداً.. ثم تابعوا طريقهم حتى وصلوا إلى القطيفة.. ولما عرفوا أن جيش المسلمين في الكسوة، قصدوا إلى الجيش ولم يشتغلوا بالبلد، وقالوا: إن غَلبنا فإن البلد لنا، وإن غُلبنا فلا حاجة لنا به.

وكان لابن تيمية دوره الكبير في تثبيت الجند، وكان يقول لهم: إنكم منصورون في هذه الكَرَّة، فيقول له الأمراء: قل إن شاء



الله، فيقول: إن شاء الله تحقيقاً لا تعليقاً، وكان يتأوَّل في ذلك أشياء من كتاب الله تعالى؛ منها قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾ [الحج: ٦٠].

وقد تكلم الناس في كيفية قتال هؤلاء التتار من أي قبيل هو؛ فإنهم يظهرون الإسلام، وليسوا بغاة على الإمام؛ فإنهم لم يكونوا في طاعته في وقت ثم خالفوه؟.

فقال الشيخ تقي الدين: هؤلاء من جنس الخوارج الذين خرجوا على علي ومعاوية، ورأوا أنهم أحق بالأمر منهما، وهؤلاء يزعمون أنهم أحق بإقامة الحق من المسلمين.

فتفطَّن العلماء والناس لذلك.

وكان يقول للناس: إذا رأيتموني من ذلك الجانب وعلى رأسي مصحف فاقتلوني!.. فتشجع الناسُ في قتال التتار، وقويت قلوبهم ونياتهم، ولله الحمد.

ولما التقى الجيشان ثبت المسلمون ثباتاً عظيماً.. ثم نزل النصر عليهم قرب العصر يومئذ، واستظهر المسلمون على أعدائهم.. فلما جاء الليل لجأ التتار إلى اقتحام التلول والجبال والآكام، فأحاط بهم المسلمون يحرسونهم من الهرب، ويرمونهم عن قوس واحدة إلى وقت الفجر.. فقتلوا منهم ما لا يعلم عدده إلا الله عز وجل.

وكانت هزيمة التتار منكرة حتى وصل جماعة منهم إلى الفرات؛ فغرق بعضهم فيه بسبب الظلام.

وكشف الله بذلك عن المسلمين غمَّة عظيمة شديدة، ولله الحمد والمنة».

وكانت هذه نهاية التتار، وقد جرت هذه المعركة على أرض اسمها«مرج الصُّفَّر»، وسميت المعركة «وقعة شقحب» وهو اسم لقرية صغيرة هناك.

في هذا الجو قضى ابن القيم صباه؛ حيث كان عمره يوم وقعة شقحب اثني عشر عاماً.. وعاش قبل ذلك مع أهل دمشق خوفهم وما أصابهم من شدة.. فقد كان واعياً لذلك.

ولعل إعجابه بابن تيمية قد بدأ في تلك الأيام، حيث رأى فيه ـ كما رأى غيره ـ العالم المجاهد بسيفه وقلمه وكلمته، ورأى فيه القائد حين تغيب القيادة، وأصبح الحليم حيران.

❑ ❑ ❑



## ثانياً
## الوضع الاجتماعي

«لم تكن الناحية الاجتماعية أقل سوءاً من الناحية السياسية، فقد كان الناس يعيشون في رعب وفزع، وخوف من سوء المصير، وخيَّم الفقر، وابتلي الناس بالجوع والغلاء، مع نقص في الأموال والثمرات، وانطلق اللصوص ينهبون ويسلبون، واستعان الأمراء بهولاء اللصوص على تحقيق مآربهم، وظهر الفساد في المتاجر، وفي كل نواحي الحياة»[١].

❑ ❑ ❑

(١) من مقدمة الشيخ سيد سابق لكتاب «إعلام الموقعين».

# ثالثاً
# الحياة العلمية

لم تكن الحياة العلمية على شاكلة الحياة السياسية والاجتماعية، ويرجع السبب في ذلك إلى «أن المماليك عرفوا أن العلم سياج الدولة وعمادها، والعلماء هم حملة هذا العلم وروَّاد الأمة، فعملوا على تشجيع العلوم والتزلُّف إلى العلماء، فبنوا لهم المدارس، والمساجد. . وأجزلوا العطاء للعلماء، وأوقفوا على ما بنوا الأوقاف العظيمة، وذلك لأنهم كانوا ينشئون دولة، فرأوا أن خير ما يضمن لهم البقاء هو تشجيع العلوم والظهور أمام المسلمين بأنهم حماة الدين المدافعون عن البلاد والعباد. .»[1].

كما ساهم العلماء في نشر العلم رغم الظروف الصعبة التي يعيشها الناس، وساهم الأغنياء في بناء المدارس وإقامة الأوقاف عليها.

---

(١) ابن قيم الجوزية، ولمحمد مسلم الغنيمي، ص(٧٤)، المكتب الإسلامي.



ويصوِّر لنا الدكتور عبد الرحمن النحلاوي واقع الحياة العلمية خير تصوير، فيقول: «. . لذلك كثرت المدارس وتنوَّعت في كل عاصمة من عواصم الولايات، في طول البلاد وعرضها، وأقيمت على نظام شعبي لا مركزي، روعيت فيه شروط الواقفين وأنظمة الأوقاف، كما أقيمت على نظام من التخصص، فهناك مدارس خصصت للفقه، بل لفقه مذهب معين، ومدارس لتدريس الحديث، وأخرى للتفسير، وللغة أو النحو. . .».

«وكان أعيان كل بلدة أو ولاية، وأغنياؤها، هم الذين يؤسسون المدارس، ويحددون العلوم التي يرغبون أن تدرس، ويرصدون لها أوقافاً من أموالهم، ويكتب «صك الوقف» لكل مدرسة، يحدد فيه الواقف شروطه: كعدد طلاب المدرسة، والعلم الذي يراد أن تخصص له، ونحو ذلك. . .».

«وتقوم الدولة بالإشراف على هذه المدارس، لمراقبة تنفيذ وصية الموصي، أو وقف الواقف، عن طريق «كبير القضاة» كما قال الإمام السبكي، ومما يتعين على القاضي: أن ينظر في أمر الأوقاف والمستحقين من المشتغلين والمحتاجين وغيرهم. . .».

«وقد يشترط الواقف قراءة علوم أخرى. . يقفها الواقف على طائفة مذهب معين، ويشترط في المدرس أن يعرف ـ مثلاً ـ من العلوم كذا وكذا، كالتفسير والحديث. . .».

«وقد بلغت هذه المدارس من الرقي مبلغاً، صُنِّفَ معه طلابها ورُتِّبوا على درجات أدناها«فقهاء المدارس»؛ وهم الطلاب العاديون المبتدئون، وفوقهم درجة «المنتهي من الفقهاء»؛ وعليهم من البحث والمناظرة فوق ما على من دونهم».

«وتعلوهم درجة«المفيد»؛ وعليه أن يعتمد ما يحصل به في الدرس فائدة من بحث زائد على بحث الجماعة، وأعلاها درجة«المعيد»؛ وهوالذي يعيد ما قرره شيخ المدرسة، وعليه تفهيم بعض الطلبة ونفعهم وعمل ما يقتضيه لفظ الإعادة».

«أما الوظائف الإدارية في هذه المدارس فأعلاها وظيفة «القيم» على المدرسة، وهو القائم على تنظيم جميع شؤونها، والمشرف على صرف مرتبات طلابها وشيخها وسائر الموظفين، ويشرف كذلك على سير الدروس، وتحقيق الأهداف التي وُقِفَتْ من أجلها المدرسة.. ثم «النقيب» ويختار من الطلاب، مهمته تنظيمهم وتنبيههم للسماع، وإيقاظ نائمهم، كما ذكر ابن جماعة الكناني».

«ثم «كاتب الغيبة على الفقهاء»؛ وهو الذي ينظم جدول الغياب والحضور، ثم «كاتب غيبة السامعين» وهو كسابقه إلا أنه خاص بمدارس الحديث».

«وهناك وظائف «فنية ـ إدارية» لبعضها صفة علمية، مثل



«شيخ الرواية»؛ وعليه أن يسمع المحدثين، ويستمع لما يقرؤونه عليه لفظة لفظة، ووظائف ملحقة بالمدرسة، كوظيفة«خازن الكتب»؛ ومهمته صيانتها والاحتفاظ بها، وإعارتها للمحتاجين إليها، وألا يخرج الكتاب إلا برهن إذا اشترط الواقف ذلك»[(١)].

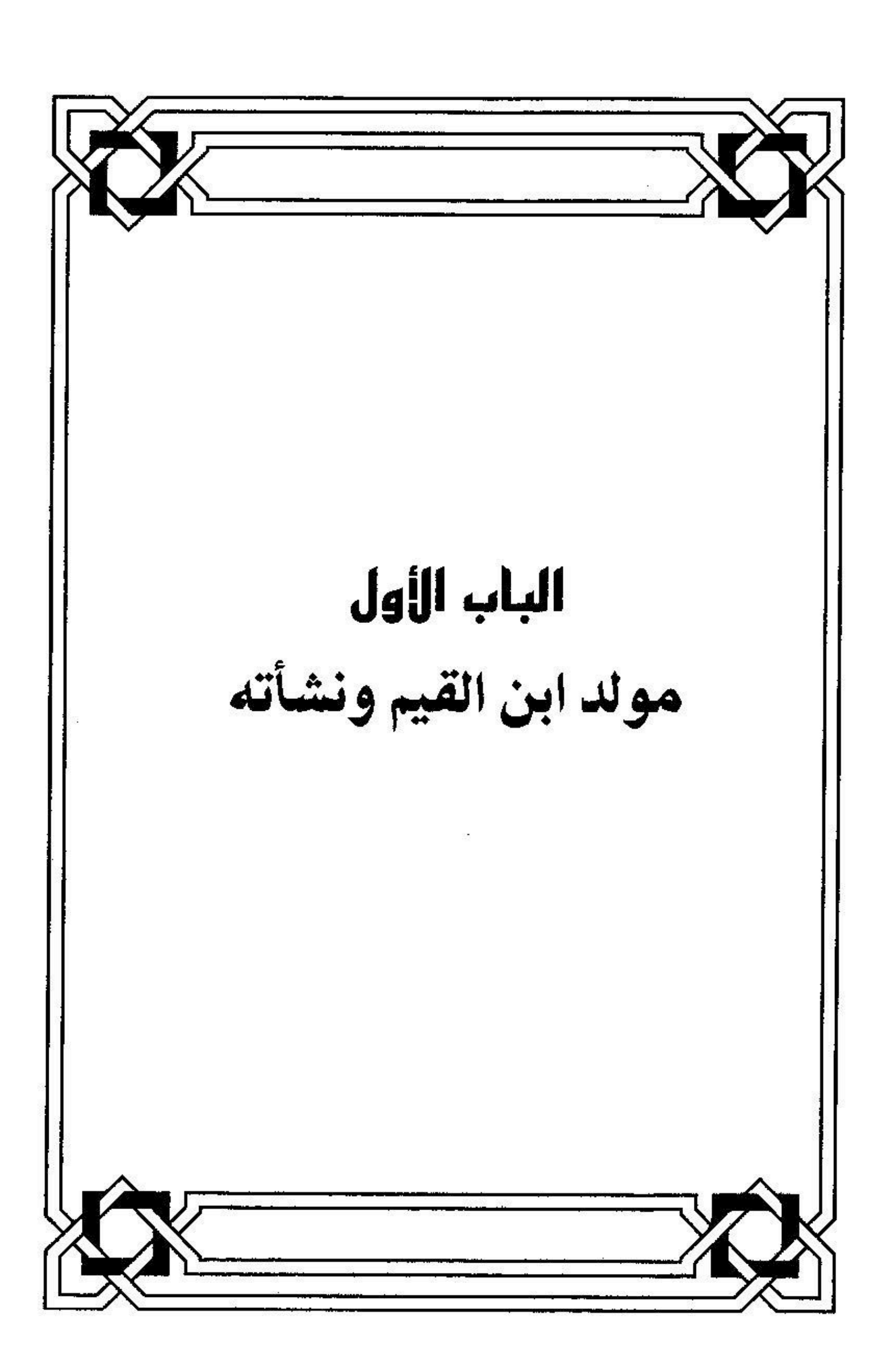
على أن هذه الحركة العلمية النشطة، كانت ضمن إطار محدود بالمذهبية، فكل أتباع مذهب يعتنون بالمدارس التي تعلم مذهبهم، فظل الجمود قائماً، وعاش طلاب العلم الجدد عالة على السابقين يقلدونهم تقليداً أعمى.

«ولذلك خمدت القرائح وعجزت عن الابتكار والاجتهاد والتجديد، ولا ينقض هذا وجود أفراد كان لهم ـ إلى حدٍّ ما ـ جهد يذكر فيشكر»[(٢)].

❑ ❑ ❑

(١) ابن قيم الجوزية، لعبد الرحمن النحلاوي، ص(٧١ ـ ٢١)، دار الفكر المعاصر.

(٢) من مقدمة الشيخ سيد سابق لكتاب «إعلام الموقعين».



# الباب الأول

# مولد ابن القيم ونشأته

# تمهيد

ينبغي أن نعترف ـ ونحن في صدد التقديم لهذا الباب ـ أن الإمام ابن القيم لم يحظَ في كتب التراجم بما هو أهل له، من الحديث عن تاريخ حياته المليئة بالعطاء، الحية بالحركة الفاعلة في سبيل الإصلاح.

إنها صفحات قليلة سطرتها كتب التراجم، وهي متشابهة في المحتوى والمضمون، ولذلك فتعددها لا يفيد أكثر من تأكيد الخبر. أما الزيادة في بعضها على بعض فهي قليلة لا تكاد تذكر.

هذا ما نجده في «البداية والنهاية» لابن كثير الدمشقي، و«ذيل طبقات الحنابلة» لابن رجب، و«الوافي بالوفيات» للصفدي، و«الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة» لابن حجر، و«البدر الطالع» للشوكاني، و«منادمة الأطلال» لابن بدران، و«شذرات الذهب» لابن العماد، و«الرد الوافر» لابن ناصر الدين الدمشقي، و«بغية الوعاة» للسيوطي، و«هدية العارفين» للبغدادي، و«العبر» للذهبي... وغيرها.

فترجمته في «البداية والنهاية» ـ على سبيل المثال ـ جاءت في صفحة واحدة، وفي «شذرات الذهب» جاءت في صفحتين ونصف، ونصف هذه الترجمة في تعداد كتبه. . وهكذا بقية كتب التراجم.

وهذا ما تنبّه له الشيخ أبو الحسن الندوي، حيث قال: «وممّا يبعث على الدهشة والاستغراب: أن التاريخ لا يتحدث عن سيرته إلا بإيجاز، والمعتمد في ذلك هو ما ذكره تلميذه النابغة الشهير الحافظ ابن رجب الحنبلي عن سيرته في (طبقات الحنابله)»[1].

والترجمة المشار إليها عند ابن رجب هي في حدود ثلاث صفحات؛ استغرق سرد أسماء كتبه أكثر من صفحة.

والذي يبدو لي أن سبب هذا الشُّح في المعلومات حول شخص ابن القيم هو طبيعة الحياة التي عاشها؛ وهي تنقسم إلى ثلاثة أدوار:

**الدور الأول**: حياته الأولى من مولده حتى سنة(٧١٢هـ)؛ وهي سنة تتلمذه على الإمام ابن تيمية.

**الدور الثاني**: من سنة (٧١٢هـ) حتى سنة (٧٢٨هـ)؛ وهي سنوات مصاحبته للإمام ابن تيمية.

(١) رجال الفكر والدعوة في الإسلام، الجزء الثاني (الحافظ ابن تيمية)، ص(٢٦٣).



**الدور الثالث**: ما بعد وفاة ابن تيمية سنة(٧٢٨هـ) وحتى نهاية حياته.

ففي الدور الأول كان ابن القيم في دور طلب العلم، فلم تكن له تلك الشهرة التي تلفت الأنظار لترجمته.

وفي الدور الثاني كان في مكان الظل لابن تيمية؛ فكانت الأضواء مسلطة على شيخه.

وفي الدور الثالث كانت حياته امتداداً لحياة شيخه. . «والحقيقة أنه أذاب شخصيته في حياة شيخه وأستاذه بحيث لم يعد له وجود مستقل ولا شخصية بوحدها» كما قال الشيخ أبو الحسن الندوي[1].

ولعل مراد أبي الحسن: أن المنهج الذي سلكه ابن القيم بعد وفاة شيخه كان في الطريق نفسه الذي سلكه شيخ الإسلام ـ من الإلحاح على القضايا التي كانت محل اهتمام ابن تيمية، فلم يكن هناك من جديد يلفت النظر.

ولهذا كانت ترجمته مختصرة كما رأينا.

❑ ❑ ❑

١) المرجع السابق نفسه.

# الفصل الأول

# مولده وأسرته

## اسمه ونسبه:

هو أبو عبد الله، شمس الدين، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حريز بن مكي، زين الدين، الزرعي، ثم الدمشقي، الحنبلي، الشهير بـ «ابن قيم الجوزية».

هذا هو نهاية ما تحرر الوقوف عليه، في جر نسبه، من نحو ثلاثين كتاباً من كتب التراجم التي ترجمت له من المتقدمين والمتأخرين، وهي متفقة في هذا السياق إلى جد أبيه: «سعد».

وأما جده الأعلى فهو «مكي» الملقَّب «زين العابدين» فإن عامة من ترجم لابن القيم رحمه الله لم يذكره في سياق نسبه، وإنما تحصَّل لي من ترجمة أخيه عبد الرحمن في كتاب«الدرر الكامنة» لابن حجر.

وأما «الزُّرعي» ـ بضم الزاي المعجمة ـ فنسبه إلى «زرع» ـ بضم الزاي ـ قرية صغيرة من بلاد حوران، ويطلق عليها الآن اسم «ازرع» ـ وهي جنوبي دمشق، وتبعد عنها (٥٥) ميلاً[١].

---

(١) التقريب لفقه ابن قيم الجوزية، للشيخ بكر أبو زيد (١/ ١٩ ـ ٢٠).

**ولادته:**

تتفق كتب التراجم على أن ولادته كانت سنة (٦٩١هـ) ، وفي كتاب «الوافي بالوفيات» للصفدي أن مولده كان في سابع صفر من ذلك العام[١] .

ولم تبين هذه الكتب مكان الولادة، ونقل الشيخ بكر أبو زيد عن المراغي في كتابه «طبقات الأصوليين» أن ولادته كانت في دمشق .

وذهب كل من الشيخين شعيب الأرنؤوط وعبد القادر الأرنؤوط في ترجمته في مقدمة «زاد المعاد» إلى أن ولادته كانت في «ازرع» ، وتحول بعد ذلك إلى دمشق .

**قلت:** يغلب على الظن أن ولادته كانت في دمشق، فقد ذكر في جملة مشايخه ـ كما سيأتي ـ الشهاب العابر، قال ابن القيم : وسمعت عليه عدة أجزاء، ولم يتفق لي قراءة هذا العلم عليه لصغر السِّنِّ واخترام المنية له .

فالشهاب العابر عاش في دمشق ومات فيها، ولم يكن في «ازرع»، وتوفي سنة (٦٩٧هـ) وابن القيم يومئذ في السابعة .

---

(١) الوافي بالوفيات (٢/ ١٩٥) .



ثم إن والده كان قيماً للمدرسة، أي مديراً لها، وليس من المعقول أن يصل إلى هذا المنصب إلا بعد مدة من العمل في هذه المدرسة ـ وبخاصة في ذلك الزمن ـ ، وإذن فوالده كان مقيماً في دمشق قبل ولادته . والله أعلم .

وقطع أبو الحسن الندوي بأن ولادته كانت في دمشق[١] .

**سبب شهرته بـ (ابن قيم الجوزية):**

اشتهر هذا الإمام بين أهل العلم، المتقدمين منهم والمتاخرين بـ (ابن قيم الجوزية) ، وقد يختصر بعضهم فيقول : (ابن القيم) .

ويشرح لنا الشيخ بكر أبو زيد سبب ذلك فيقول :

«تتفق كتب التراجم على أن المشتهر بهذا اللقب (قيم الجوزية) هو والد هذا الإمام : الشيخ أبو بكر ابن أيوب الزرعي، إذ كان قيماً على المدرسة الجوزية بدمشق مدة من الزمن؛ فقيل له : (قيم الجوزية) واشتهرت ذريته وحفدتهم من بعد بذلك .

ولا تعطينا كتب التراجم عن هذه القوامة أكثر مما ذكر، ولعل هذا لوضوح الحال، وتوارد المعنى اللغوي للقيم على الاصطلاحي .

---

(١) رجال الفكر والدعوة في الإسلام ، الجزء الثاني ، ص(٢٦٣) .

هذه النسخة المصوّرة من كتاب




تعرض صفحات منه وليست تصويراً
لكامل الكتاب

في العربية، وسمع وقرأ وتنبه، وأسمعه أبوه بالحجاز، وطلب بنفسه، ودرس بالصدرية والتدمرية، وله تصدير بالجامع الأموي ، وشرح ألفية ابن مالك، وسماه «إرشاد السالك إلى حل ألفية ابن مالك» وكان له أجوبة مسكتة» .

توفي ببستانه بالمزة يوم الجمعة مستهل صفر، وصلي عليه بجامعها ثم بجامع جراح، ودفن عند والده بباب الصغير، وبلغ من العمر ثمانياً وأربعين سنة؛ إذ كانت وفاته سنة (٧٦٧ هـ) ، وترك مالاً كثيراً[١] .

* * *

بهذا الجو العلمي نشأ ابن القيم، يتقلب في أحضان دروس العلم ويستنشق عبيره أنَّى سار ، وقد أوتي ذكاءً وقَّاداً وفكراً صافياً، وعقلاً نقَّاداً يزن الأمور ويقايس بينها؛ فيقبل ما صفا ويترك ما كدر .

وهذا ما أتاح له فيما بعد أن يتربَّع على الكرسي الذي سمي «ابن القيم» .

❑ ❑ ❑

(١) شذرات الذهب ، في ترجمة سنة وفاته .



# الفصل الثاني

## طلبه للعلم

### بدء طلبه العلم:

نشأ ابن القيم في أحضان والده الذي كان قيِّماً للمدرسة الجوزية، والقيِّم ـ كما رأينا ـ هو الدرجة العليا في الترتيب الإداري للموظفين، فهو المسؤول الذي يُرجع إليه .

ولا شك أن ابن القيم كان يتردَّد على والده في هذه المدرسة من نعومة أظفاره ، فنشأ في أحضان العلم وحلقات الدرس، وأَلِفَ رؤيتها قبل أن يعي ما يدور فيها .

وليس بين أيدينا ما يعطينا التصور الواضح عن المراحل التعليمية التي تدرج فيها، وكل ما يمكن تسجيله في هذا الصدد هو العلوم التي تلقَّاها ما قبل سنة (٧١٢ هـ)؛ وهي السنة التي بدأ تتلمذه فيها على الإمام ابن تيمية .

نتبين ذلك من خلال ذكر شيوخه وما قرأ على كل منهم .

ومما يبين لنا طلبه المبكر للعلم أنه سمع عدة أجزاء على أبي

وحزر من حضر جنازته بمائتي ألف، ومن النساء بخمسة عشر ألفاً، رحمه الله ورضي عنه[1].

❑ ❑ ❑

(١) شذرات الذهب (٦/ ٨٥ ـ ٨٦).



# الفصل الخامس

## ابن القيم وشيخه ابن تيمية

### لماذا تأخر اتصال ابن القيم بشيخه؟:

اتفقت كلمة كتب التراجم على أن اتصال ابن القيم بشيخ الإسلام ابن تيمية كانت سنة (٧١٢ هـ)؛ وهي السنة التي عاد فيها شيخ الإسلام من مصر إلى دمشق واستقر فيها إلى أن مات سنة (٧٢٨ هـ).

أي أن ملازمته له دامت لمدة ستة عشر عاماً.

وهذا يعني ـ أيضاً ـ أن عمر ابن القيم يوم اتصل بشيخه كان (٢٢) عاماً، أي في سن من يتخرج من الجامعة في أيامنا هذه.

ونتساءل: لماذا تأخر هذا الاتصال؟.

ما من شك بأن ابن القيم عرف «شيخ الإسلام ابن تيمية» من صباه من خلال أحداث حصار دمشق من قِبَلِ التتار، فقد كان الشيخ هو الرجل الفاعل على الساحة يومئذ، وأخبار شجاعته في

قتاله ضد التتار تناقلها الناس، والإنسان في صباه تعجبه أخبار البطولة.. وابن القيم واحد ممن عاش هذه الأحداث، وارتسمت من خلالها صورة الشيخ في مخيلته..

ويغلب على الظن أن سبب التأخر هو أن الشيخ ابن تيمية مكث في مصر سبع سنوات قبل أن يعود ليستقر في دمشق، فقد كان سن ابن القيم (١٥) عاماً قبل أن يسافر الشيخ، وفي هذه السن لم يكن ـ فيما يبدو ـ مؤهَّلاً للقاء الشيخ، فقد كان في بدايات التحصيل.

**إعجاب ابن القيم بشيخه:**

وما إن اتصل ابن القيم بشيخ الإسلام، حتى رأى نمطاً جديداً من التفكير، وأسلوباً لم يعهده في فهم النصوص من قبل، ومرجعية محصورة في الكتاب والسنة، وقد كان من قبل يعيش ضمن إطار المذهب ومرجعيته.

وهكذا خرج من الأطر الضيقة إلى فضاء الإسلام وسعته.. وهذا ما جعله يستمسك بالشيخ، ويقصر ملازمته عليه.

ولما رأى الشيخ من تلميذه الإقبال الصادق على العلم، والذهن المتفتح، والعقل المستنير؛ أولاه من عنايته وألوان توجيهه ونصحه.. ما جعل التلميذ يلهج بذكر أستاذه طول حياته.

والحقيقة: أن كلاً منهما رأى في الآخر ضالته المنشودة.



فقد رأى ابن القيم في شيخه العالمَ الملمَّ بعلوم وقته، فهو العالم المفسر، والمحدث، والفقيه.. والنحوي والفرضي، والعالم بالمذاهب والأديان.. إنه مجموعة من العلماء في شخص واحد.. فلم يَعُدْ بحاجة إلى غيره.

ورأى فيه العابد الصادق، والمجاهد الشجاع، والآمر بالمعروف لا يخاف في الله لومة لائم، والناصح الحريص على استقامة المسلمين والتزامهم بدينهم، وتحرير عقولهم من الأوهام والانحرافات..

إنه اللقاء بين العلم والعمل على أعلى مستوى يتم في شخص شيخ الإسلام، فكيف لا يكون إعجاب ابن القيم به شديداً وفيه هذه الصفات وغيرها من صفات الخير كثير.

ورأى شيخ الإسلام في تلميذه: الطالب الحريص على العلم، المتمتع بالذكاء الكبير، والعقل المستنير، المستوعب لما يلقى إليه، القادر على التحرر من ربقة التقليد.. إنه نموذج من الطلاب الذين يقل وجودهم.. ولذا كانت عناية الشيخ بتلميذه كبيرة.

وهذا ما جعل هذا اللقاء بين الشيخين يستمر (١٦) عاماً، وحتى عندما سجن الشيخ في السنتين الأخيرتين من حياته بسبب فتوى قديمة له، سجن معه تلميذه لا لشيء سوى أنه تلميذ

## الفصل الثامن

## وفاة ابن القيم رحمه الله

تتفق الروايات التي ترجمت للإمام ابن القيم على أن وفاته كانت ليلة الخميس في الثالث عشر من رجب، وقت أذان العشاء، سنة إحدى وخمسين وسبعمائة من الهجرة[1].

وصلِّي عليه من الغد عقب صلاة الظهر بجامع دمشق الكبير ـ الأموي ـ ثم بجامع الجراح، وقد ازدحم الناس على تشييع جنازته.

قال ابن كثير: وقد كانت جنازته حافلة ـ رحمه الله تعالى ـ شهدها القضاة والأعيان والصالحون، من الخاصة والعامة، وتزاحم الناس على نعشه.

ودفن بمقبرة الباب الصغير عند والديه رحمهما الله تعالى[2].



(١) البداية والنهاية (١٤/ ٢٣٤).
(٢) المرجع السابق نفسه.



# الباب الثاني

# شخصية الإمام ابن القيم



وقال ابن ناصر الدين الدمشقي: «له التصانيف الأنيقة، والتآليف التي في علوم الشريعة والحقيقة»[1].

❑ ❑ ❑

(١) الرد الوافر (١/ ٦٨).



## الفصل الثالث

## العلوم التي تناولها بالبحث

بعد أن عرفنا مكانة الإمام العلمية، وتحدثنا عن مؤلفاته، يحسن بنا أن نتعرَّف على العلوم التي تناولها بالبحث.

وقد رأينا في الفصل الأول من هذا الباب كم هي متعددة تلك الفنون التي برع فيها وألَّفَ وصنف، وسأحاول أن أتكلم عن بعض هذه العلوم بشكل مختصر بحسب علمي المتواضع، فليس من السهل على مثلي أن يعطي صورة كاملة عما كان يتمتَّع به هذا الإمام من معرفة وعلم.

❑ ❑ ❑

# أولاً ـ التفسير

لقد أثنى العلماء على علمه بالتفسير. . حتى قال تلميذه ابن رجب: وكان عالماً بالتفسير لا يجارى فيه.

وابن القيم لم يؤلِّف كتاباً في التفسير، وما فسره من آيات الذكر الحكيم جاء في كتبه المتعددة، فتارة يقتضيه البحث تفسير آية، وتارة بعض آية، وتارة عدة آيات، فجاء التفسير عرضاً ولم يقصد إليه، اللهم إلا تفسير «المعوذتين» حيث قصد إلى ذلك، فوضع لهما عنواناً واضحاً «تفسير المعوذتين»، وتناول شرحهما بشكل مفصل. . وختم ذلك بقوله:

«فهذا ما مَنَّ الله به من الكلام على بعض أسرار هاتين السورتين، وله الحمد والمنة، وعسى الله أن يساعد بتفسير على هذا النمط، فما ذلك على الله بعزيز، والحمد لله ربِّ العالمين»[1].

(١) جاء تفسير هاتين السورتين في كتاب «بدائع الفوائد» (٢/ ١٩٨ ـ ٢٧٦).



وقال مثل ذلك في آخر تفسيره لسورة «الكافرون» التي لم يقصد إلى تفسيرها، وإنما جاء الكلام عنها خلال حديثه عن ﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ وكان مما قال:

«فهذا ما فتح الله العظيم به. . وعسى الله المانُّ بفضله، الواسع العطاء؛ الذي عطاؤه على غير قياس المخلوقين: أن يعين على تعليق تفسير على هذا النمط وهذا الأسلوب، وقد كتبت على مواضع متفرقة من القرآن بحسب ما يسنح من هذا النمط وقت مقامي بمكة وبالبيت المقدس، والله المرجو إتمام نعمته»[1].

على أن ما شرحه الإمام من الآيات شيء كثير، وقد قدره الشيخ بكر أبو زيد بخمسة مجلدات فقال:

«وكتابته على مواضع متفرقة من القرآن، هي من خلال كتبه تقع في نحو خمسة مجلدات فيما يظهر حسب التتبع»[2].

وخلاصة القول: أن «المعوذتين» هما ما فسره الإمام قاصداً إلى ذلك، ويمكن أن نلحق بهما سورة «الفاتحة» التي استفتح

(١) بدائع الفوائد (١/ ١٤١).

(٢) ابن قيم الجوزية، بكر أبو زيد، ص (٢٣٢)، وسوف يكون الحديث عن هذا الموضوع في الفصل القادم.

# ثانياً ـ السنة

كان الإمام ابن القيم عالماً بالحديث ومعانيه وفقهه، ودقائق الاستنباط منه لا يُلحق في ذلك، كما قال تلميذه ابن رجب.

وعندما ننظر في تراثه، نجد له خمسة كتب في السنة، اثنان في قائمة المطبوع، وثلاثة في قائمة المخطوط.

١ ـ أما الكتاب الأول من المطبوع فهو «تهذيب مختصر سنن أبي داود»:

وهو مطبوع مع «مختصر المنذري» وشرحه «معالم السنن» للخطابي في ثمانية مجلدات، في مطبعة «أنصار السنة المحمدية» بتحقيق أحمد محمد شاكر، ومحمد حامد الفقي.

وقد شرح المؤلف في مقدمة الكتاب الغرض منه، فقال:

«ولما كان كتاب السنن لأبي داود من الإسلام بالموضع الذي خصَّه الله به، بحيث صار حكماً بين أهل الإسلام.. وكان العلامة عبد العظيم المنذري قد أحسن في اختصاره وتهذيبه.. فأحسن



حتى لم يكد يدع للإحسان موضعاً، جعلت كتابه من أفضل الزاد، واتخذته ذخيرة ليوم المعاد، فهذبته نحو ما هذب هو به الأصل، وزدت عليه من الكلام على علل سكت عنها ولم يكملها، والتعرض إلى تصحيح أحاديث لم يصححها، والكلام على متون مشكلة لم يفتح مقفلها، وزيادة أحاديث صالحة في الباب لم يشر إليها، وبسطت الكلام على مواضع جليلة لعل الناظر المجتهد لا يجدها في كتاب سواه..».

**أقول**: والكتاب يظهر مكانة المؤلف في علم الحديث سنداً ومتناً، وتصحيحاً وتضعيفاً، والكلام على علل الحديث وغيرها.

**٢ ـ أما الكتاب الثاني فهو: «المنار المنيف في الصحيح والضعيف»:**

وموضوع الكتاب واضح من اسمه، وهو في الأصل جواب على سؤال عن أحاديث، طُلب منه بيان وضعها من حيث الصحة والضعف.

ومما جاء فيه: «من العلامات التي تعرف بها الأحاديث الموضوعة، مخالفة الحديث لصريح القرآن كحديث مقدار الدنيا..»[(١)].

(١) ابن قيم الجوزية، لبكر أبو زيد، ص (٣٠٤).

# ثالثاً ـ أصول الدين

وصف ابن القيم بأنه كان عالماً بأصول الدين، كما قال ابن رجب، وبأنه كان عالماً بـ «الأصلين» كما عند ابن كثير والسيوطي.

والمقصود بالأصلين: أصول الدين، وأصول الفقه.

وأصول الدين تعني أمور الاعتقاد ممَّا يتعلق بالألوهية والنبوات والإيمان بالقدر وغير ذلك مما هو معروف بشأن هذا العلم.

ولم يؤلِّف الإمام كتاباً تقليدياً يتناول هذا الموضوع، ولكن كتابه «شفاء العليل» يتناول بحث «القدر»، وهو جزء من هذا المبحث، وهناك كتاب مخطوط عنوانه «شرح أسماء الله الحسنى» له صلة بالموضوع.

يضاف إلى ذلك كتاب «اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية».

فإنه تناول مسألة رئيسة من مسائل الاعتقاد، وهي «علو الله تعالى وأنه فوق كل شيء».



والكتاب كله حول هذه المسألة؛ حشد فيه المصنف الآيات الكريمة وأقوال الأنبياء والأحاديث الشريفة، وأقوال الصحابة والتابعين والأئمة الأربعة وغيرهم.. تأييداً وتأكيداً.

ومما جاء فيه قوله:

«قال شيخ الإسلام: وهذا كتاب الله من أوله إلى آخره، وسنة رسوله ﷺ وعامة كلام الصحابة والتابعين، وكلام سائر الأئمة، مملوء بما هو نص أو ظاهر في أن الله سبحانه وتعالى فوق كل شيء، وأنه فوق العرش، فوق السموات...»[(١)].

وإذا لم يكن بين أيدينا كتاب، فإن ابن القيم تناول عناصر هذا الموضوع في كتبه المتعددة، وبخاصة الكتب المحسوبة على علم التصوف، فالصلة بين العلمين كبيرة وبخاصة عند ابن القيم.

وأرى أنه من المستحسن ذكر بعض النصوص التي عالج فيها الإمام بعض جوانب هذا الموضوع لعلها تلقي الضوء على طريقته التي انتهجها..

* * *

قال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى:

«الربُّ تعالى يدعو عباده في القرآن إلى معرفته من طريقين:

---

(١) كتاب الفوائد، الفصل (٦).

ومن شبَّهه بخلقه ومثَّله بهم، كذَّب تشبيهُهُ وتمثيلُهُ توحيدَه.

**والتوحيد الإرادي العملي له ضدان أيضاً:** الإعراض عن محبته، والإنابة إليه، والتوكل عليه.

والإشراك به في ذلك، واتخاذ أوليائه شفعاء من دونه.

وقد جمع سبحانه وتعالى بين التوحيدين في غير موضع من القرآن...»[1].

* * *

تلك العناصر الرئيسة في هذا الموضوع، حاولت وضع نماذج منها أمام القارئ ليتعرف على الطريقة التي عالج فيها الإمام هذا الموضوع.

ولعل الله سبحانه ييسر لهذا العلم ـ علم أصول الدين ـ من يجمع مادته من كتب الإمام وينسق بينها، ويحسن طريقة عرضها.. فيقدم للمسلمين كنزاً ثميناً، بهذه اللغة الواضحة، بعيداً عن المصطلحات ومعميات القول.

❑ ❑ ❑

(١) اجتماع الجيوش الإسلامية، ص (٤٩ ـ ٥٠)، الناشر دار البيان.



## رابعاً ـ أصول الفقه

يتفق مترجمو الإمام على وصفه بـ «الأصولي»، وعندما نستعرض قائمة كتبه، نجد له كتابين في هذا الموضوع؛ أحدهما مطبوع وهو «إعلام الموقعين»، والثاني مخطوط وهو «الاجتهاد والتقليد».

وكتاب «إعلام الموقعين» يعدُّ أحد أهم كتابين وضعهما الإمام، والثاني منهما هو كتاب «زاد المعاد».

وهذا الكتاب جمع فيه المؤلف كل الموضوعات التي تعد من مفردات أصول الفقه، وقد أطال في بيانها والاستدلال لها.

على أن المؤلف لم يكتفِ بهذا الكتاب في عرض الموضوعات الأصولية، بل نراه يعرض لهذه الموضوعات في كتبه الأخرى، وإن نظرة سريعة في كتاب «التقريب لفقه ابن قيم الجوزية» للشيخ بكر أبو زيد، في باب «مباحث أصول الفقه وقواعده والقواعد الفقهية» تطلعنا على أنه ما من كتاب من كتب ابن القيم خلا من ذكر شيء من ذلك.

ولعل مرجع ذلك، هو أن الشيخ يعتمد الدليل على كل ما يسوقه، والقواعد الأصولية والفقهية تقوم مقام الدليل، إذ هي لم تصبح قاعدة إلا بعد اجتماع الأدلة عليها. ولذلك انتشرت في جميع كتبه.. وقد لا يكتفي بالقواعد بل يسوق بعض المباحث كاملة.

هذا وسوف يكون الحديث عن هذا الكتاب تفصيلاً في الباب الخامس.

* * *

وينبغي أن نلحق بهذا العنوان كتاب «الطرق الحكمية» وهو مطبوع، وكتاب «الإعلام باتساع طرق الأحكام» وهو في قائمة المخطوطات.

فكتاب «الطرق الحكمية» يتناول فرعاً من فروع الأصول، وهو ما يتعلَّق بوسائل الإثبات، وهو ما يعرف في زمننا باسم «أصول المحاكمات ووسائل الإثبات».

وهو كتاب قيم فريد في بابه، سوف يكون الحديث عنه تفصيلاً في الباب الخامس.

❑ ❑ ❑



## خامساً ـ الفقه

على الرغم من وصف ابن القيم بـ (الفقيه)، وهذا أمر لا مرية فيه، فإنا لا نجد له كتاباً في الفقه بالمعنى التقليدي، وإنما توزعت بحوثه الفقهية على كتبه..

وما من شك في أنه اطلع على كتب ابن قدامة: «المغني» و«الكافي» وغيرهما، ولكنه لم يرغب بهذا النمط من التأليف، واعتقد أن مرجع ذلك إلى:

١ ـ أنه وجد في المكتبة الإسلامية من هذا النمط من التأليف ما فيه الكفاية.

٢ ـ أنه اتخذ طريقه في أن يدور مع الدليل حيث دار، وليست الأدلة دائماً حليفة الفقه الحنبلي.

٣ ـ أنه لو ألَّف كتاباً على طريقته متبعاً الدليل، فلمن يؤلفه؟ في وقت كانت فيه المذهبية على أشدها، ومن سوف يستفيد منه يومئذ؟ إذ لن تكون للكتاب صفة ينتسب بها إلى ما تعارف عليه الناس يومئذ من مذاهب.

### سؤالان

وقال: لا تزول قدما العبد بين يدي الله، حتى يسأل عن مسألتين:

ـ ماذا كنتم تعبدون؟.

ـ وماذا أجبتم المرسلين؟.

فجواب الأولى بتحقيق «لا إله إلا الله» معرفة وإقراراً وعملاً.

وجواب الثانية بتحقيق «أن محمداً رسول الله» معرفة وإقراراً وانقياداً وطاعة(١).

❑ ❑ ❑

(١) هذه المختارات من كلامه، من كتاب «مواعظ الإمام ابن قيم الجوزية»، جمعها صالح أحمد الشامي، نشره المكتب الإسلامي.



# الفصل السادس

## تأثر ابن القيم بابن حزم والغزالي

كان الإمام ابن القيم واسع الاطلاع، وإنتاجه العلمي دليل على ذلك؛ فهو نتاج ذلك الاطلاع، ويؤكد ذلك ما قام به الشيخ بكر أبو زيد من جمع أسماء الكتب التي ذكرها في مؤلفاته المطبوعة، والتي بلغ تعدادها (٥٦٩)، وهي التي قرأها ورجع إليها، وكانت جزءاً من مكتبته التي اتفق المترجمون له على أنها كانت كبيرة..

وإذا كان ابن القيم يذكر كتلميذ لشيخ الإسلام ابن تيمية ـ وهو الذي كان له الأثر في اتجاهه العلمي الذي انتهجه ـ؛ فإن هناك علماء آخرون كان لهم أثر كذلك، وإن لم يكن على هذا المستوى.

وإني أخصُّ بالذكر منهم عَلَمان من أعلام الإسلام، هما: الإمام ابن حزم، والإمام الغزالي رحمهما الله تعالى.

وهـذه الجـوارح هـي: العيـن والأذن، والفـم والفـرج، واليـد والرجل...»(١).

وهكذا جاء موضوع «محاسبة النفس» عند ابن القيم مطابقاً لما جاء عند الغزالي، في الخطوات، وفي المثال، وفي الأعضاء التي تحتاج إلى الرعاية، بل وفي الألفاظ الرئيسة «كالمشارطة»..

ما من شك في أن بصمات الغزالي واضحة الأثر على ابن القيم في بحوثه التي تتعلق بعلم السلوك، والأمثلة السابقة وغيرها تؤكد ذلك.

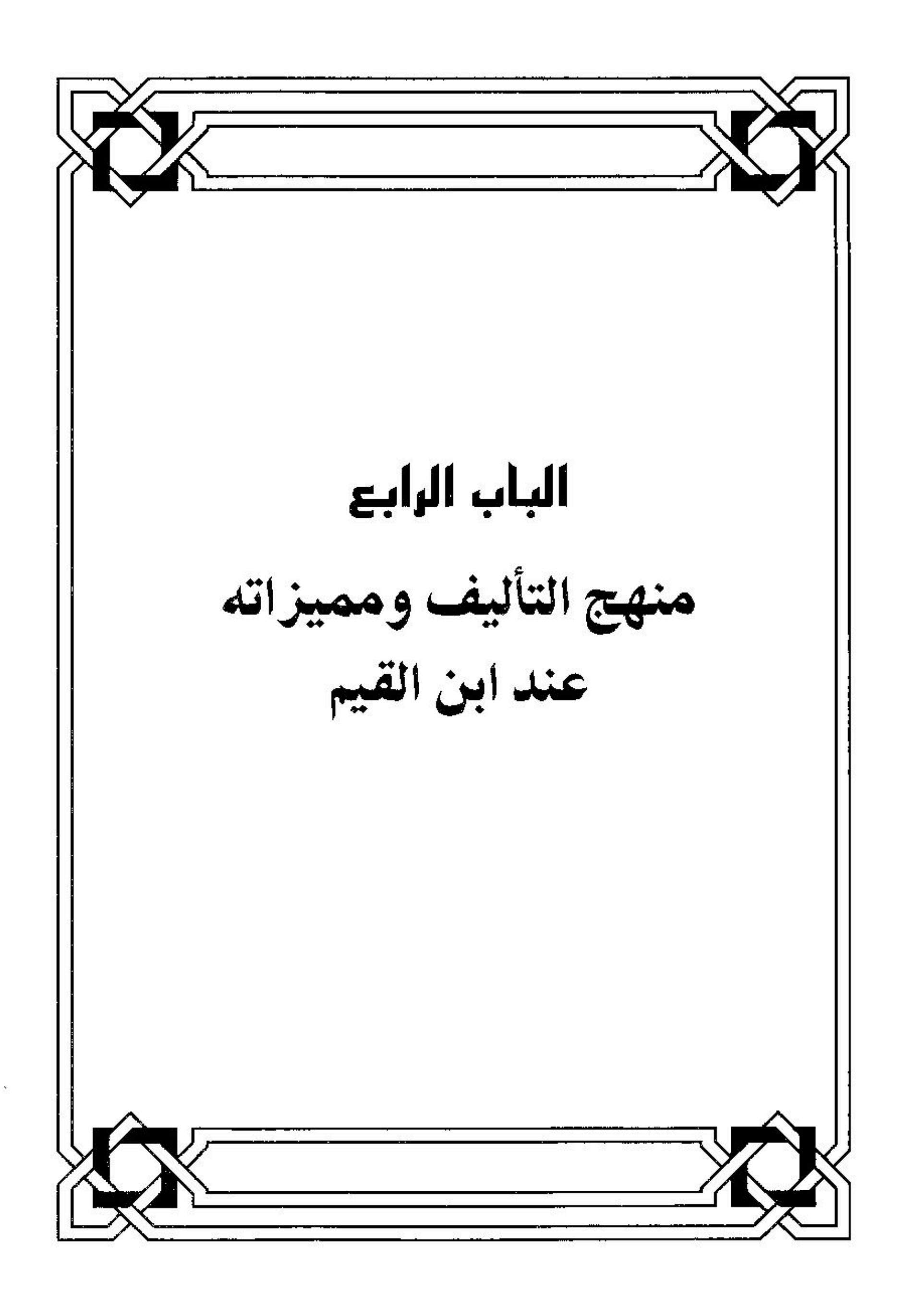
فكثير من المصطلحات والكلمات التي جاءت عند الغزالي نجدها ـ أو ما يراد منها ـ عند ابن القيم. ومثل هذا البحث يحتاج إلى دراسة خاصة، ليس هذا مكانها.

❑ ❑ ❑

---

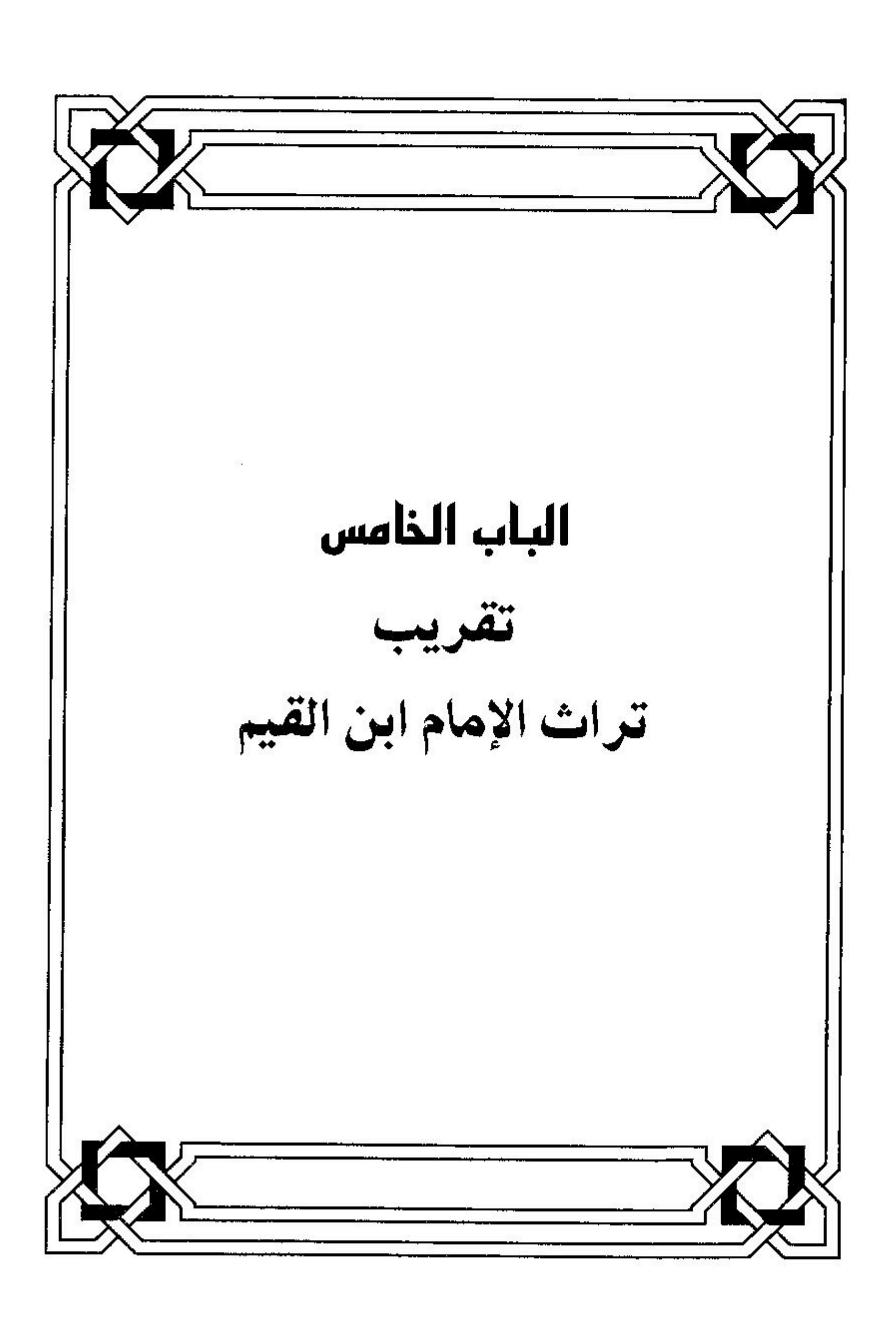
(١) إغاثة اللهفان (١/١٤٦).





# الباب الرابع

# منهج التأليف ومميزاته عند ابن القيم



# الباب الخامس

# تقريب

# تراث الإمام ابن القيم

# تمهيد

**١ ـ الباعث على العمل:**

كان ذلك عام (١٤١١ هـ) عندما دخلت غرفة المدرسين في المعهد العلمي الثانوي حيث أعمل، فوجدت على الطاولة التي يجلس عليها المدرسون كتاب «طريق الهجرتين» في وسطها. . ومر أسبوع كامل ولم يتغير مكان الكتاب. .

فدفعني الفضول إلى السؤال عن صاحبه. . فكان الجواب من مدرس النحو الذي كان يدرس يومها شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك. . : أنا صاحبه.

قلت: إنه منذ أسبوع في هذا المكان؟ قال: لا حاجة لي به.

قلت: أتأذن لي أن أستعيره. . ؟.

وأخذت الكتاب، ولم أكن قد قرأته من قبل وإن كنت على صلة بعنوانه، فقرأته في أيام قلائل، وأعدته إلى صاحبه وقلت له: اقرأه ففيه خير كثير، وأعطيته إياه، وكنت ألاحقه في السؤال يومياً كم قرأ منه؟.

وكان يتهرب من السؤال في غالب الأحيان.. وبعد عشرين يوماً جاء به وناولني إياه، وكرر عبارته الأولى: لا حاجة لي فيه، ثم قال: قرأت صفحات قليلة من أوله ولكني بعد ذلك لم أفهم شيئاً فتركته.

وأخذت الكتاب منه واخترت من بين المدرسين مدرس مادة «التوحيد» وهي مادة تعج بالمصطلحات والتعريفات.. فقصدته وقلت له: هل قرأت هذا الكتاب؟ قال: لا، فرجوته أن يقرأه. فوعد خيراً..

وكنت أتابعه كما تابعت المدرس الأول.. وبعد شهر تقريباً جاءني بالكتاب وتكررت الصورة مرة أخرى، واعتذر بأنه بعد الصفحات الأولى لم يعد يسعفه الفهم..

وأخذت الكتاب وعدت إلى البيت، وأنا أتساءل في نفسي: إذا كان هؤلاء لم يفهموا مثل هذا الكتاب، وهم يمثّلون الشريحة المثقفة في الأمة فليس فوقهم إلا مدرسو الجامعات.. فمن يفهم هذا الكتاب؟ وبالتالي: فلمن كتب ابن القيم هذا الكتاب.

وللجواب على هذين السؤالين كان عليَّ أن أقرأ الكتاب قراءة متأنية أكثر من مرة، بغية التعرف على العوائق التي تحول دون الفهم..



وكان كتاب «تقريب طريق الهجرتين»، ثم «مشروع تقريب تراث الإمام ابن القيم».

### ٢ ـ غاية التقريب وأنواعه:

إن غاية «مشروع التقريب» هي إيصال كتب الإمام ابن القيم إلى القارئ بحيث تكون سهلة الفهم قريبة المتناول إلى فكره، واضحة المعالم، بحيث يخرج القارئ بعد قراءة الكتاب بتصور كامل عن الموضوع، عارفاً أقسامه وتفرعاته..

ولم يكن من الممكن استعمال طريقة واحدة للوصول إلى هذه الغاية، فلكل كتاب موضوعه وخصوصيته، وإنما تحدد الطريقة بعد دراسة الكتاب دراسة متأنية تلمُّ بموضوعه وطريقة البحث التي سلكها المؤلف في معالجته، ومعرفة كلياته وجزئياته..

وبشكل عام فقد تحصَّل لدي من خلال العمل عدة طرق؛ هي:

١ ـ معالجة ذاتية للكتاب الواحد بمفرده، وإلقاء الضوء على الموضوع الذي تناوله.

٢ ـ طريقة تقسيم الكتاب عندما تتعدد موضوعاته، وإفراد كل منها بكتاب (الفرز الموضوعي).

٣ ـ جمع «الموضوع الواحد» من الكتب التي ورد فيها.

٤ ـ تهذيب الكتاب.

وسيكون الحديث عن كلٍّ من هذه الطرق في فصل مستقل يتناول الحديث عن الكتب التي تم التعامل معها بتلك الطريقة.

**٣ ـ فائدة عرض هذا الموضوع:**

هناك أكثر من فائدة في عرض هذا الموضوع ضمن هذه الترجمة وأخص بالذكر ثنتين:

**الأولى**: يقف القارئ أمام استعراض لِكَمٍّ من ثقافة ابن القيم لا بأس به من خلال الكتب التي ستكون محل البحث.. وذلك مقصد من مقاصد ترجمة الإمام.

**الثانية**: أنه سيكون أمام دراسة تحليلية لهذه الكتب، في شكلها كما هي بين الأيدي وكما وضعها المؤلف، ثم يتعرف على الطريقة التي تمت المعالجة بها، وكيف أصبحت بعد ذلك.

إن القارئ سيكون أمام معرفة شبه كاملة بالكتب التي سيتناولها البحث وهي (١٢) كتاباً، أصبحت بعد التقريب (١٥) كتاباً.

❑ ❑ ❑



# الفصل الأول

## تقريب كتاب بعينه

إن هذا النوع من التقريب يعتمد المحافظة على نص المؤلف الموجود ضمن الكتاب، ولا يزيد عليه ولا ينقص منه، والعمل فيه إنما هو تدخلٌ من حيث ترتيب الشكل مع عدم الإخلال بقصد المؤلف. وقد صدر بهذه الطريقة حتى الآن ستة كتب هي:

**أولاً ـ طريق الهجرتين:**

**أ ـ وصف الكتاب:**

قلت: إن هذا الكتاب هو الذي أوحى بفكرة المشروع..

وقبل أن أبدأ بالحديث عن وصفه أحب أن أتكلم عن كيفية تحديد «هوية الكتاب» أي كتاب، وإنما يتم ذلك بقراءة مقدمته أو النظر في فهرسه.

والذين عُنوا بكتاب «طريق الهجرتين» وضعوا له الفهارس حسب ما بين أيديهم من موضوعات، فجاءت محيرة في

تنوعها. . فلم يستطع المحقق أو المشرف تحديد هوية الكتاب، وانظر معي إلى ما جاء في مقدمة هذا الكتاب في طبعة «دار ابن القيم» في صدد التعريف بموضوعه؛ حيث جاء فيها:

«نستطيع القول أن كتاب ابن القيم هذا، موسوعة علمية، **قد** أحاط فيه بالكثير من المسائل والمعارف والعلوم. .» ثم ذهبت تعدد ما جاء فيه من المسائل دون تحديد لموضوع الكتاب[1].

هذا مع العلم أن هوية الكتاب كانت واضحة في موضوع الكتاب ويكفي أنه شرح معنى الهجرتين وما قصد بهما. ولا أريد الإطالة بنقل بعضها.

ومع ذلك فإنه معذور إذ ترتيب الموضوعات وعدم تناسق العناوين محيِّر؟.

**وأعود إلى وصف الكتاب**: إني عندما درست الكتاب وجدته حافلاً بالإسهاب والاستطراد.

أما الإسهاب فذلك ناتج عن غزارة العلم وسعة الاطلاع، وهو يلبي استكمال الموضوع من جميع جوانبه، وأما الاستطراد فإنما يكون لمناسبة في الكلام اقتضت ذكره.

---

(١) مقدمة الطبعة التي نشرتها «دار ابن القيم»، ط ١، عام ١٤٠٩ هـ.



ولكن بعض الاستطرادات في هذا الكتاب، كانت عبارة عن بحوث كاملة لها عناصرها ومقوماتها، ومع ذلك فهي جملة بين معترضتين ضمن البحث.

وفي الكتاب فصول كثيرة، ولكن البدء بفصل، لا يعني بدء بحث جديد، بل ربما كان شرحاً لفكرة وردت في الفصل السابق استطراداً. .

وأسلوب ابن القيم الرائع جعل الكتاب شديد التماسك، لا يتميز فيه إلا بحثان: **الأول**: بحث الفقر؛ وهو الوارد في أول الكتاب، **والثاني**: طبقات المكلفين، وهو البحث الأخير من الكتاب، وقد أشار إليهما المصنف في مقدمته.

فقارئ الكتاب، كثيراً ما يصعب عليه التفريق بين الفكرة التي هي من البحث الأصلي وبين فكرة استطرادية وردت بعد ذلك، وذلك راجع ـ كما قلت ـ إلى أسلوب ابن القيم، فما تكاد تشعر بذلك الفارق أو تلك النقلة، إلا إذا أشعرك بها، أو كنت من أمسك قلماً، وتتبع نقاط البحث، ففرق بين الأصل وغيره.

وقد ساعد على عدم التفريق هذا، طول الاستطرادات وتتابعها بعض الأحيان، فقد يكون الاستطراد صفحات. . وقد يقول المؤلف بعض الأحيان: ولنرجع إلى المقصود. . فيعلمك بذلك.

وإذا كان هذا القول بعد عدة استطرادات . . فلا تدري إلى أيها تعود؟! . .

وخلاصة القول: إن الاستطرادات هي العامل العائق الذي يحول دون فهم الكتاب.

**ب ـ تقريب الكتاب:**

بعد الدراسة تبين لي أن الاستطرادات الواردة في الكتاب ترجع إلى ثلاثة أنواع:

١ ـ استطرادات قصيرة: غايتها شرح كلمة أو فكرة أو ذكر نظير المسألة.

٢ ـ استطرادات طويلة: هي عبارة عن موضوعات كاملة، وهي موضوعات رئيسة، قد يحيل المصنف عليها أثناء الكتاب.

٣ ـ استطرادات طويلة: هي عبارة عن شروح أو مسائل اختلفت فيها الآراء.

وبناء على ذلك، فقد قسمت الكتاب إلى ثلاثة أقسام:

**القسم الأول:** وضعت فيه الاستطرادات ذات الموضوع، والتي يحيل عليها المصنف وهي موضوعات لها الصدارة في هذا البحث ـ وإن أتى بها المصنف استطراداً ـ وقد جاءت في خمسة فصول.



**القسم الثاني:** وفيه أصل الكتاب، وهو مقسم إلى عدة أبواب، وتحت كل باب عدد من الفصول، وكل فصل ـ بدوره ـ تندرج تحته عناوين فرعية.

**القسم الثالث:** وضعت فيه الاستطرادات الطويلة التي هي شروح.

أما الاستطرادات القصيرة، فقد أبقيتها في مكانها من الكتاب، ولكني نقلتها إلى الحاشية، وهو مكانها المناسب.

وقد بينت في القسمين الأول والثالث، مكان كل فصل فيهما في أصل الكتاب، حتى يرجع إليه من رغب في ذلك.

وقمت بما ينبغي بشأن الأحاديث من حيث التخريج، وترجمة لبعض الأعلام . .

**جـ ـ من فوائد هذا التقريب:**

لئن كانت الغاية الأولى، هي تقريب الكتاب إلى الأفهام، فإن هذا العمل قد أظهر فوائد أخرى قد لا تقل ـ بعض الأحيان ـ عن الفائدة التي كانت هي الغاية، ومن ذلك:

١ ـ تَبَيَّنَ أن الكتاب ـ بأقسامه الثلاثة ـ يبحث موضوعاً واحداً، هو موضوع «التربية والسلوك»، أو الموضوعات التي يعالجها

ـ الفصلان الثاني والثالث من الباب السادس.

ـ الفقرة الأولى من الباب الأول.

ـ مقدمة الفصل الأول من الباب الخامس.

ـ البابان: الثاني عشر والثالث عشر.

وقد أشرتُ إلى مرجع كل ما أضفته.

وقد تمت العناية بالشكل من تقسيم الأبواب إلى فصول، والفصول إلى فقرات.

**ثالثاً ـ قل انظروا:**

سبق الحديث عن هذا الكتاب عند الحديث عن السنن الإلٰهية في الباب الثالث من هذا الكتاب[1].

❑ ❑ ❑

(١) انظر: ص ١٦٣، وما بعدها.



# الفصل الرابع

## التقريب بالتهذيب

المقصود بتهذيب كتاب هو استخلاص مادته «الأصل» مما لابسها من استطراد وتطويل وغير ذلك مما يعيق ترابط الموضوع، بحيث يصبح الكتاب وافياً بغرضه على طريقة المستقيم الذي هو أقصر خط بين نقطتين.

وقد تمَّ تقريب الكتب التالية على هذه الطريقة:

**أولاً ـ المهذب من مدارج السالكين:**

وصف الكتاب:

ألف ابن القيم كتاب «مدارج السالكين» شرحاً لكتاب «منازل السائرين إلى الحق المبين» الذي ألفه شيخ الإسلام أبو إسماعيل عبد الله الهروي المتوفى سنة (٤٨١ هـ)؛ وهو واحد من شيوخ الحنابلة.

وربما كان الدافع للشرح هو الدفاع عن الشيخ وحفظاً لمكانته.

وكتاب «مدارج السالكين» بدأه المؤلف بالحديث عن سورة الفاتحة، ثم بدأ الكلام على المنازل التي ذكرها الهروي.

وطريقته في عرض المنازل: أنه يتحدث عن «المنزلة» محل البحث، فيتكلم بما يسَّره الله له، ويستوفي ما يتعلق بالموضوع، ثم ينتقل إلى ما قاله الهروي فيتناوله بالشرح جملة جملة..

وهكذا فالقارئ للكتاب يشعر وكأنه أمام كتابين في موضوع واحد، لمؤلف واحد.

أما الأول: فهو ما كتبه المؤلف عن المنازل، وهو مدارج السالكين.

وأما الثاني: فهو شرح كتاب «منازل السالكين».

ونتج عن ذلك:

١ ـ التكرار؛ فالموضوع يعرض مرتين.

٢ ـ أصبح الكتاب ثلاثة مجلدات، وكان يكفيه مجلد واحد.

٣ ـ تشويش فكر القارئ وبخاصة عندما تكون وجهات النظر مختلفة بين الشيخين.



٤ ـ تقطيع الموضوع ـ في غالب الأحيان ـ بسبب طريقه الشرح تارة، وبسبب الاستطراد تارة أخرى.

وهذا ما جعل الكتاب صعباً على الفهم، حتى قال الأستاذ صلاح شادي: «عالجت صفحاته في شوق، ولكن صدمتني وعورة دروبه ومسالكه؛ فانصرفت عنه!».

**أ ـ تقريب الكتاب:**

إن الأمور السابقة دفعت إلى فكرة تهذيب الكتاب بحيث يقتصر فيه على:

١ ـ ما كتبه ابن القيم بشأن «المنازل» بعيداً عن الشرح المتعلق بكتاب الهروي.

٢ ـ الاقتصار على المادة المتعلقة بعنوان الكتاب وموضوعه بعيداً عن الاستطرادات.

وقد تم ذلك ـ بحمد الله تعالى ـ؛ حيث تم استخراج كلام الإمام من ثنايا شرحه للمنازل، وتمت تنقيته من الاستطرادات.

وبهذه الطريقة تم الابتعاد عن «المصطلحات» التي وردت في «المنازل» والتي انتقدها ابن القيم أشد النقد.

وقسمت الكتاب إلى ثلاثة أبواب:

**الباب الأول**، وعنوانه: الكلام على فاتحة الكتاب، وجاء **في** سبعة فصول.

**الباب الثاني**، وعنوانه: منازل إياك نعبد وإياك نستعين، **وفيه** موضوع الكتاب وقد مهدت له بفصلين. . تم بعدهما عرض المنازل واحدة بعد الأخرى.

**الباب الثالث**، تحت عنوان: مختارات، وفيه عدة موضوعات ذات صلة بموضوع الكتاب جاءت ضمن الاستطرادات، فرأيت جمعها في هذا الباب.

إن هذا العمل ليس اختصاراً للأصل، ولكنه انتقاء لمادة الكتاب المرتبطة بعنوانه، وجمع لها وترتيب.

**ثانياً ـ القضاء والقدر:**

**أ ـ وصف الكتاب:**

ألف المصنف في هذا الموضوع كتابه «شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل».

والكتاب يتناول الموضوع بكل أبعاده، فهو يعرض مذهب أهل السنة في المسألة ـ الذي هو غرض الكتاب ـ ويعرض المذاهب الأخرى، ويستعرض حجج أصحابها، في غير تعصب أو تحامل، فيقبل صحيح هذه الحجج ويرفض باطلها.



وهو بهذا كتاب فقه مقارن في شأن مسألة القدر.

**ب ـ تقريب الكتاب:**

يهدف التقريب إلى الاقتصار على عرض مذهب أهل السنة، بعيداً عن آراء المذاهب الأخرى ومناقشتها، وبهذا تتسع دائرة الاستفادة منه، ولا يبقى قاصراً على العلماء وطلاب العلم.

ومن أجل ذلك:

١ ـ كان لا بد من جهد يبذل لاستخلاص كلام ابن القيم المتعلق بمذهب أهل السنة مما لابسه من عرض ومناقشة للمذاهب الأخرى. وقد تم ذلك.

٢ ـ أطال المؤلف في بعض المواطن كثيراً، تارة بإيراد النصوص، وتارة بإيراد الأمثلة، وبعض هذه النصوص أو الأمثلة يفي بالغرض على أكمل وجه، فاكتفيت بما يحقق الغرض.

٣ ـ في الكتاب استطرادات تناسبية غير قليلة، رأيت تركها اقتصارا على ما له صلة مباشرة بالموضوع.

٤ ـ أدخلت بعض التعديلات على ترتيب مادة الكتاب، بغية الحفاظ على سهولة التعامل مع الموضوع، ومن أمثلة ذلك أن التعريف بالقدر جاء في الباب التاسع، والمستحسن أن يكون في أول الكتاب.

# المحتـوى

**الباب الرابع**

**منهجه في التأليف ومميزاته**







**الباب الخامس**

**تقريب تراث ابن القيم**

## الباب السادس

## التعريف بكتب الأخرى

## الباب السابع

## الإمام المصلح







❑ ❑ ❑

# كتب للمؤلف

**أولاً ـ في السنَّة المطهرة:**

١ ـ الجامع بين الصحيحين، (٥ مجلدات).

٢ ـ زوائد السنن على الصحيحين، (٧ مجلدات).

٣ ـ تحقيق الجمع بين الصحيحين، للموصلي، **(في** مجلدين).

٤ ـ العناية بالأدب المفرد، للإمام البخاري.

٥ ـ تحقيق مشارق الأنوار، للقاضي عياض **(تحت الطبع)**.

٦ ـ الوافي بما في الصحيحين.

**ثانياً ـ في السيرة النبوية الشريفة:**

١ ـ من معين السيرة.

٢ ـ من معين الشمائل.

٣ ـ من معين الخصائص النبوية .

٤ ـ السيرة النبوية (تربية أمة وبناء دولة) .

٥ ـ تحقيق المواهب اللدنية ، للقسطلاني ، (٤ مجلدات) .

٦ ـ أضواء على دراسة السيرة .

٧ ـ هكذا فهم الصحابة .

٨ ـ أهل الصفة (بعيداً عن الوهم والخيال) .

٩ ـ الغرانيق ، (قصة دخيلة على السيرة النبوية) .

١٠ ـ المهذَّب من الشفا ، للقاضي عياض .

١١ ـ سيرة النبي ﷺ في بيته .

**ثالثاً ـ في الرقائق والأخلاق :**

١ ـ مواعظ الصحابة .

٢ ـ المهذَّب من إحياء علوم الدين (في مجلدين) .

٣ ـ تحقيق رسالة «شرح المعرفة» ، للمحاسبي .

٤ ـ تهذيب حلية الأولياء ، للأصبهاني ، (٣ مجلدات) .

٥ ـ سلسلة مواعظ السلف : صدر منها :

ـ مواعظ الإمام الحسن البصري .



ـ مواعظ الإمام سفيان الثوري .

ـ مواعظ الإمام عمر بن عبد العزيز .

ـ مواعظ الإمام مالك بن دينار .

ـ مواعظ الإمام سلمة بن دينار .

ـ مواعظ الإمام إبراهيم بن أدهم .

ـ مواعظ الإمام عبد الله بن المبارك .

ـ مواعظ الإمام الفضيل بن عياض .

ـ مواعظ الإمام الشافعي .

ـ مواعظ الإمام أبي سليمان الداراني .

ـ مواعظ الإمام الحارث المحاسبي .

ـ مواعظ الشيخ عبد القادر الجيلاني .

ـ مواعظ الإمام ابن الجوزي .

ـ مواعظ شيخ الإسلام ابن تيمية .

ـ مواعظ الإمام ابن قيم الجوزية .

ـ مواعظ الإمام الغزالي .

**رابعاً ـ مشروع تقريب تراث الإمام ابن القيم رحمه الله:**

**صدر منه عن المكتب الإسلامي:**

١ ـ تقريب طريق الهجرتين.

٢ ـ الوابل الصيّب من الكلم الطيّب.

٣ ـ سيرة خير العباد.

٤ ـ البيان في مصايد الشيطان.

٥ ـ القضاء والقدر.

٦ ـ قل انظروا.

٧ ـ فضل العلم والعلماء.

٨ ـ الطرق الحكمية في السياسة الشرعية.

٩ ـ الهدي النبوي في العبادات.

١٠ ـ الهدي النبوي في الفضائل والآداب.

١١ ـ الروح.

١٢ ـ إعلام الموقعين.

**وصدر عن دار القلم:**

١٣ ـ طب القلوب.



١٤ ـ الجواب الكافي (الداء والدواء

١٥ ـ المهذب من مدارج السالكين

**خامساً ـ موضوعات أخرى:**

١ ـ محبة الله ورسوله شرط في الإيمان.

٢ ـ نظرات في هموم المرأة المسلمة.

٣ ـ الفرائض فقهاً وحساباً، (في جزأين).

٤ ـ الفن الإسلامي (التزام وإبداع).

٥ ـ الظاهرة الجمالية في الإسلام.

٦ ـ ميادين الجمال في الظاهرة الجمالية.

٧ ـ التربية الجمالية في الإسلام.

٨ ـ الإمام الغزالي (سلسلة أعلام المسلمين).

٩ ـ الإسلام دين التيسير.

١٠ ـ رضيت بالإسلام ديناً.

١١ ـ فصول في إصلاح النفس والمجتمع، للإمام ابن الجوزي.

١٢ ـ الصلاة.. الصلاةَ (آخر ما تكلَّم به النبي ﷺ).

١٣ ـ الجمال في منهج الإسلام وتشريعه .

١٤ ـ نداء الإيمان في القرآن الكريم .

❑ ❑ ❑